بعيدًا إلى " بابل "

اقرأ من فضلك الأصحاح الأول من "سفر دانيآل".
إن الأصحاح الأول من "سفر دانيآل" –مثل الأخير– مختصر جدا. إنه في شكل رواية أو حكاية بسيطة، تُعلّمنا درسا لا ننساه.
ينقسم الأصحاح إلى أربعة أجزاء:

حملة "نبوخذ نصر" على "أورشليم"
قبل أن نخوض في بحث موضوعنا، يجب أن نتذكر أننا لا نقرأ أسطورة، بل نحن نتعامل مع التاريخ، مع أحداث حدثت بالفعل. في أول عددين نقرأ عن حملة نبوخذ نصر على أورشليم. ففي عام 605 ق.م، وهي سنة تنصيبه ملكا على بابل، حاصر "نبوخذ نصر" مدينة "أورشليم" وهزمها. وسلب كنوز الهيكل وكل ما شاء ومن شاء وعاد بها إلى بابل. وسمح للملك "يهوياقيم" أن يحكم باسمه في أورشليم. وكتابع لـ"نبوخذ نصر" وخاضع لسلطانه، أصبح دُمْيَة لثماني سنوات، بعدها تمرَّد "يهوياقيم"، فتعرَّض للعقاب القاسي من "نبوخذ نصر"، الذي أخذ بقية أواني الهيكل وكنوزه، ونقلها إلى "بابل" وأحرق بيت الرب، وأخذ إلى "بابل" عددا من الأسرَى، وبقيت مدينة أورشليم كما هي.

هذه لم تكن مجرد صدفة، لكنها كانت -كغيرها من كل الأحداث التاريخية- يد الرب. لقد وثق اليهود لزمن طويل في الهيكل، أكثر من ثقتهم في الرب، واعتقدوا أن وجود الهيكل يضمن لهم الحماية من أي غزو يهددهم. ورغم إنذارات الأنبياء، قالوا: "مادام عندنا الهيكل فنحن آمنون، (يهوه) لا يترك هيكله يبيد، وعندما يُهدَّد الهيكل، فحتما سيأتي الله وينقذنا".

بهذا الاعتقاد، استمرت الأمة اليهودية في خطيَّتها؛ فازدادت الوثنية، وانتشر الظلم والفجور، وعمَّ الكذب والسرقة، كافة الجهات. لقد كانوا واثقين أنه مهما كانت حياتهم، فالهيكل ينقذهم ويحميهم.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فها هو الهيكل قد صار خرابا، وملك وثني أخذ كنوزه إلى خزائنه في "بابل"، ليستخدمها في تمجيد إلهه المفضل.

بتلك الأحداث، أعلن الله أنه لا يحتمل الخطية، والثقة في هيكله ليست بديلا للتوبة. لكن لو كان الشعب قد رجع إلى الرب، لرفع غضبه عنهم.

الله هو الحاكم، سواء وُجد هيكله أو لم يوجد. ومهما حدث على الأرض، يبقى هو الله. وبناء على عِلمه، وحسب قصد مشيئته، سلَّم الرب بيده "يهوياقيم" ملك يهوذا إلى يد "نبوخذ نصر" (عدد2).

الله هو المسيطر تماما على التاريخ، وهو القادر على تنفيذ وعيده. فتدمير المدينة المقدسة، وخراب الهيكل، والكنوز المنقولة، وأسرى الحرب، كلها من تدبيره هو، ولتحقيق أهدافه.

إن تجربة شعبه كانت هزيمة وخراب ودمار. ويبقى هو الرب، الرب الذي لا يُهزَم، الذي يعمل بالكل وفي الكل.

تقديم " دانيآل " وأصحابه الثلاثة
الأعداد 3 – 7 تقدم الشخصيات الرئيسية في السفر.
كان "نبوخذ نصر" الملك، ذكيا عبقريا وبارعا، لدرجة أنه تفادى الأخطاء التي وقع فيها فرعون، الذي اضطهد العبرانيين في مصر، وعاملهم معاملة العبيد، وسحقهم وأذلّهم وجعلهم تحت نعله. تجنَّب "نبوخذ نصر" هذا الأسلوب، لعلمه أنها مخاطرة تؤدي إلى التمرّد. كانت "بابل" قاهرة العالم، وكان عدد المقهورين، أكثر بكثير من جيوش "بابل" التي قهرتهم، فكان من المستحيل على "نبوخذ نصر" القيام بنظام قاهر ظالم على مستوى كل العالم. لذا دبَّر أمره في كيفية بقاء الأمم المهزومة مُخلِصة للإمبراطورية.

أخذ "نبوخذ نصر" خلاصة فكر كل أمة قهرها، ووظفها في خدمة المدنيَّة البابلية؛ فاستطاع أن يحكم الأجزاء العديدة لمملكته المستمرة في الازدياد، بأولئك الأسرى. فإن تمرَّد أناس عليهم، فإنما يتمرَّدون على أفراد من شعبهم، وربما ضد أبنائهم.

كانت هذه هي الطريق التي استخدمها "نبوخذ نصر" عندما قهر "يهوذا". فقد أمر رئيس خصيانه "أشفنز" بأن يُحضر من بني إسرائيل، ومن نسل المُلك، ومن الشرفاء، فتيانا لا عيب فيهم (عدد3). أمر أن يجعلهم في مناصب ذات مسئولية. كان لهم أن يدخلوا ضمن خدمته الملكية. فكان على "اشفنز" أن يبحث عن المرشحين لتلك المناصب، من بين النسل الملكي ونبلاء الأمة اليهودية. وقد شاع أن مثل هؤلاء الشباب قد جُعلوا خصيانا. لكن العدد الرابع يقول: "فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر، حاذقين في كل حكمة وعارفين معرفة، وذوي فهم بالعلم". هذا العدد يؤكد أنه كان لزاما أن يكونوا بلا عيب، حسان المنظر، وبارعين في فروع العلم المختلفة، ومطَّلعين، لائقين أن يأخذوا المكانة في خدمة الملك "نبوخذ نصر" الشخصية.

بمجرد اختيار "دانيآل" ورفاقه، "حننيا" و"ميشائيل" و"عزريا"، تم وضعهم في عهدة المسئولين، بأمر من الملك؛ ليتدربوا على خدمة شئون الدولة، ويدرسوا لغة وأدب البابليين؛ بحيث يتمكنون من تولّي مناصب تتطلب جدارة وأمانة.

لم يكن لدى الشباب الأربعة ما يشغلهم سِوَى دراستهم؛ فقد عيَّن الملك لهم مخصصات كل يوم بيومه، من أطايب مأكولات الملك ومن خمر شرابه، وأوصى أن يقضوا ثلاث سنوات في التثقيف، يمْثُلون في نهايتها في حضرة الملك (عدد5). ولما كانت السياسة البابلية تستوجب تغيير أسماء هؤلاء الشباب؛ غيَّر "نبوخذ نصر" اسم "دانيآل" الذي يعني في العبرية (الرب قد دان)، إلى اسم "بلطشاسر" بمعني (حافظ كنوز بيل الخفية). أما "حننيا" ويعني في العبرية (الرب مانح النعمة)، صار اسمه "شدرخ"، ونحن لا نعرف معنى ذلك الاسم، غير أنه يحتوي على اسم "مردوخ"

الإله الوثني. و"ميشائيل"، الذي يعني في العبرية "من مِثل الله؟" أسماه "ميشخ"، وهو اسم يحتوي على صيغة قديمة لاسم الإلهة "فينوس". وعزريا، ويعني "يهوه أعان"، تغيَّر اسمه إلى"عبد نغو" بمعنى "عبد للإله نبو".

إذا نظرت إلى الأسماء الأربعة الأصلية، تجد اثنين منهما ينتهيان بـ (إيل) وهو اسم من أسماء الله، واثنين ينتهيان بـ "ياه"، التي هي صورة مختصرة لـ "يهوه".

غيَّر "نبوخذ نصر" الملك هذه الأسماء، إلى أسماء تشير إلى آلهة وثنية، مثل "البعل" و"مردوخ" و"فينوس" و"نبو". غيَّر أسماءهم وهم في عمر الرابعة عشر. جعل لهم أسماء جديدة؛ ليولدوا بها من جديد في "بابل"، كوسائط لجذبهم للوثنية، ورمزا لخضوعهم الكامل له. غيَّر أسماءَهم حتى ينسوا بلادهم وإلههم، ويُعاد تعليمهم بشكل مكثَّف على مدى ثلاث سنوات.

كيف يكون حال هؤلاء الشباب ؟!
هل ستُنسَى الأسماء الأولى الجميلة، التي تدل على أنهم مخلِصون لإلههم؟! هل سيستسلمون ويصيرون "بابليين"؟!
هل واجهوا ضغوطا من بعض اليهود، الذين فرحوا وقالوا إن السبي لن يكون سيئا لهم؟ فالملك سوف يصنع شيئاً نافعا لأبنائهم، فيصبحون ذوي شأن؟ نعم، ربما ساورتهم هذه الأفكار، لكن ذلك سيكون على حساب فقد هويَّتهم كأولاد لله. هل استطاعوا أن يقاوموا حروب هذه الأفكار؟

وهنا، يبرز هذا التساؤل: هل يستطيع المؤمن اليوم أن يقف ثابتا، عندما يهاجم الإعلام والمجتمع، فكره ليلا ونهارا، واضعين إياه تحت ضغوط؛ بُغية تغيير فكره؟!

هل يمكن أن يتذكر المؤمن، الامتياز العظيم الذي ناله، بأنه ابن لله؟ هل يمكن أن يغمض عينيه، عن كل ما يدور حوله من مغريات، تجذبه نحو أضواء باهتة زائلة؟!

موقفهم

في الأعداد 8 – 16 نتذكر لماذا سيق اليهود إلى السبي؛ فالأمة كلها في خط روحي وأدبي منحدر. عبادة الأوثان امتدت أصولها بينهم؛ فالسبي كان عقابا على آثام الأمة، وبالأخص تلك الخطية، التي من أجلها كان عليهم أن يبقوا في بابل، حتى يتخلّصوا منها للأبد. على أية حال فإن عبادة الأوثان لم تكن بين خطايا الشعب الذي عاد من السبي. لقد كان السبي شفاء طويلا. لكن أثناء السبي، كانت عبادة الأوثان مظهرا مميّزا لحياة الشعب.

وما ميَّز البقية التقيَّة، هو رفضهم أن يشتركوا في تلك العبادة. وجدير بالذكر أن الذي دعا الفتيان الأربعة، ألا يتناولوا من أطايب الملك، ليس لاختلافها عما شرعه الله من أحكام لليهود؛ فقد كان يمكنهم على الأقل أن يتناولوا الخمر، إذ أن الشريعة اليهودية لا تحرّمها. ولكن السبب الرئيسي في رفضهم أن يتناولوا هذا الطعام؛ كان أنه سبق وقُدِّم إلى الآلهة قبل أن يقدَّم على مائدة الملك. فقد كانت الوجبة الملوكية البابلية، تبدأ بطقس لعبادة وثنية. إنهم كانوا أكثر اهتماما من كثيرين من المسيحيين، في تقديم الشكر قبل أن يأكلوا. لا شيء كان يؤكل أو يُشرب، قبل أن يكرّس أولا للآلهة الوثنية. وكل الذين يأكلون من تلك الأطعمة، كانوا يُحسبوا أنهم قد شاركوا في الطقوس الدينية؛ لذا رفض الفتيان الأربعة تناول هذه الأطعمة، وأخذوا مكانهم بين البقية التقيَّة.

ويأتي السؤال : ألا ترى يا "دانيآل" أنك متطرف؟!

سؤال يتردد على ألسنة العديد من الناس اليوم: "لماذا تهتم بشيء بسيط كالأكل من طعام قُدِّم للأوثان، وربما يؤدي رفضك لطعام من مائدة الملك، إلى الإطاحة برأسك؟ دعك من هذه الوساوس، وفكّر فقط في السلطة التي تحصل عليها، بكونك في الخدمة المدنيَّة في "بابل". فكّر في الصعود إلى القمة. أليس امتيازا لأحد أولاد الله، أن يكون في هذه المكانة؟! أليس رفضك لأمر الملك يعرّض حياتك للخطر؟! وبدلا من أن تصعد إلى القمة، تنحدر إلى قاع السجن، أو تفقد رأسك؟!"

صَمَد "دانيآل" وأصحابه الثلاثة بطريقة رائعة للغاية، وقال: "لا .. لن آكل، ومع أن ذلك الرفض يعرّضني للخطر، إلا انني سأمتنع عن أي مظهر من مظاهر الشر. سأمتنع وإن كلّفني حياتي، إني أُفَضِّل أن أُلقَى في السجن، أو يُنفذ فيَّ حكم الإعدام، على أن أرتبط بعبادة الأوثان. أُفَضِّل الموت على أن أقع في خطية".

تلك هي الروح التي نقصدها عندما نقول: كن جسورا.. كن "دانيآل". دون شك لم يكن "دانيآل" فظا في رفضه، عندما رفض الطعام الملكي، وما جاء في العدد الثامن كان تعبيرا دقيقا عن ذلك: "أما "دانيآل" فجعل في قلبه أنه لا يتنجَّس بأطايب الملك ولا بخمر مشروبه؛ فطلب من رئيس الخصيان أن لا يتنجَّس – أي يرجو إعفاءه من إلزامه بتناول أطايب الملك.
كان مهذبا في طلبه، وفي الوقت ذاته كان ثابتا على مبدئه.

إن نزاهة "دانيآل" المطلقة، جعلت له مكانة عند رئيس الخصيان (عدد9)، فاستجاب لطلبه، ولكن بسبب القلق وخوفه على حياته؛ قال لـ "دانيآل": انظر يا "دانيآل"، إن لم تَظهر مثلما يُنتظر منك، فالخطأ سيعود عليَّ".

في الأعداد 11 – 14 لم يستسلم "دانيآل"، لم يغيّر موقفه. نراه يقول لرئيس السقاة – الذي ولاّه رئيس الخصيان – في هدوء: "جَرِّب عبيدك عشرة أيام، فليعطونا القطاني فقط لنأكل (القطاني عبارة عن خليط من الخضر والفاكهة الطازجة، لكنه غير شهي).

كان "دانيآل" يقترح عمل (رجيم) من السَلَطة، فهذا أفضل من أن يأكل طعاما مرتبطا بعبادة الأوثان. فقط جرِّبنا عشرة أيام، ولا تعطِنا خمراً– سنشرب الماء بدلا منها. إن نموذج "دانيآل" جدير بدراستنا الجادة، فقد كان حكيما، لَبِقاً، عطوفاً وحساساً، وفي الوقت ذاته كان ثابتاً راسخاً. ليتنا نقتدي به.

في الأعداد 15 و16 ظهرت نتيجة تلك الوجبة التي لم تتغيَّر. مناظر الفتيان الأربعة، أحسن وأسمن لحمًا، من كل الفتيان، الآكلين من أطايب الملك.

الدرس المستفاد هنا هو: "لا أحد يخسر إن رفض المساومة". لقد هدأت مخاوف رئيس الخصيان؛ فسمح لهم أن يستمرّوا على تناول طعامهم الذي اختاروه.

كانوا أمناء في القليل، وكانت البداية، ليكونوا أمناء على الكثير. لو لم يصمُد "دانيآل"، هل كان في استطاعته أن يصمُد عندما هُدِّد بالموت في جب الأسود؟!

لو أن أصحابه الثلاثة قبلوا المساومة، في بداية حياتهم في "بابل" الوثنية، ماذا كانوا سيفعلون عندما يواجهون أتون النار المتقد؟!

لقد مجَّدوا الله في الأمور الصغيرة، فأصبحوا قادرين على تمجيده عندما واجهتهم أمور كبيرة.
من سقط في الخطايا الكبيرة، ليعلم أنه سبق وتهاون في الخطايا الصغيرة.

النتيجة
نتيجة تصرّفهم الروحي الشجاع، أُعلِنت في الأعداد 17 – 21. حين جعلوا الله قبل وفوق كل اعتبار، كرّمهم الله، ومنحهم مواهب لم يحلموا بالحصول عليها. منذ سنوات، عرفت رجلا أمِّيا، لا يعرف قراءة كلمة واحدة، وعندما خلَّصه الرب، وجد أن حياته مع الله ستكون أفضل، إن استطاع قراءة كلمته المقدسة. وبالمثابرة الجادة، وبالتكاليف الهائلة، بدأ يتعلم القراءة. زادت دهشته حين اكتشف أنه يحمل عقلا جيدا، وأصبح قارئا نَهمًا، ثم التحق بوظيفة ساع بريد.

منذ طفولته كان الجميع يقولون عنه إنه لن يكون ذا شأن، إلى أن مضت سنون، وبعدها صار قسيسا. هذا الرجل جعل الله أولا. صمم على طاعة الله وإرضائه، فاكتشف أن لديه مواهب.

وهذا ما حدث لـ "دانيآل" و"حننيا" و"ميشائيل" و"عزريا". لقد جعلوا الله أولاً، واهتموا بدراساتهم؛ فباركهم الله بالنبوغ والتألق.

هل تتذكر شيئا مشابها حدث لك في خبرتك الخاصة ؟
هل رأيت شيئا ما يجب عمله من أجل الرب، ووضعته في قلبك، وعزمت أن تعمله، وعندما عملته اكتشفت أن لديك مواهب، كنت تجهلها من قبل؟

ربما أدركت أن لديك موهبة للإدارة، أو أدركت أن في إمكانك أن تتواصل بطريقة أسهل مع الشباب.

إن المواهب وضحت ببساطة في حياتك؛ لأنك جعلت الله أولا. إن اكتشاف تلك المواهب يجعلك في المكان الأفضل في عملك اليومي أيضاً.

هذا الاختبار لا يختلف كثيرا عن ما حدث في (دانيآل1)، وبالتأكيد كانت مواهب أخرى لـ "دانيآل" ذُكِرت في العدد 17.

انتهت سنوات الدراسة الثلاث، وها وقت الاختبارات النهائية قد حان. وكما كان النظام في الجامعات البريطانية في أزمنة سابقة، أن تكون الاختبارات شفوية غير مكتوبة، فكان على الفتيان الأربعة تأدية الامتحان أمام الملك.

لقد سُجِّل تقدير الملك لهم في العددين 19و20: "وكلَّمهم الملك فلم يوجد بينهم كلهم مثل "دانيآل" و"حننيا" و"ميشائيل" و"عزريا".

إنهم كانوا أفضل من كل الطلاب الآخرين، وأفضل من الخريجين الموجودين الذين قد أنهوا دراساتهم، ويشغلون مناصب قيادية في الإمبراطورية؛ ونتيجة لذلك وجد كل من الفتيان الأربعة نفسه في منصب عال، من خلاله يستطيع أن يستخدم

نفوذه من أجل الله. ربما وضعهم الرب في هذه المناصب؛ لأنهم في أول الطريق، أظهروا إخلاصهم للرب، حتى عندما تعرَّضت حياتهم للخطر.

وبقي "دانيآل" في ذلك المنصب سبعين عاما (دانيآل1 : 21).

يشتاق المؤمن للمناصب الأعلى، ليكون له نفوذ روحي. يشتاق المعلّم أن يصبح قائدا، والموظف يتطلع أن يكون مديرا، وعضو الاتحاد يتمنى أن يصير ممثل النقابة. وكل واحد يقول: "آه لو كنت أنا هناك، كنت أستخدم نفوذي من أجل الرب".

لا أحد منا يمكنه أن يستخدم منصبا أعلى من أجل الله، إن لم يحيا من أجل الرب الآن، وحيثما يكون.

إن كنّا غير جديرين أن ننهض ونعمل لأجله، في الأمور البسيطة الصغيرة، فكيف نعمل في الأمور الكبيرة؟!

هل يمكن أن يكون أحد أمينا على الكثير دون أن يكون أولا أمينا على القليل؟ إن كنا لا نستطيع أن نقاوم التجارب الصغيرة، فماذا نفعل عندما تواجهنا تجارب جسام؟!

فالدرس الأساسي في (دانيآل1) يمكن تلخيصه في عبارة واحدة: "إني أكرم الذين يكرموننني" (1صم2 : 30).